حول الادب "المحنط"!

بقلم رمضان لاوند

اننا نخطيء خطأ جسيما حين نتهم الأدب العربي التقليدي بالجمود ، ونعتبره أدباً محنطاً .

إنما ينبغي ان نعتبره أدب الشخصية القومية العامة ، وهو ضروري لنهضة كل أمة .

بين الناقد والادب صلة حائرة قلقة ، حارت بحيرتها المقاييس والموازين التي نميز بها ما حسن من الادب وما قبح ، ونحدد ما انحرف منه وما استقام . وظننا ان دون هذه المقاييس والموازين عقبات وصعوبات يستحيل معها الاطمئنان الى صحة مسارٍ فني او أصل من اصول البحث النقدي العامة . فالأدب فن ، والفن شخصية ، والشخصية ذات مقومات مستقلة لا تخضع لجبرية القانون او مبادئه العامة . ومحاولتنا في اخضاع هذه الشخصية لجبرية القانون قد تلم بحاشية الأدب او مرتكزاته اللغوية والفكرية ولكنها تعجز عجزاً اكيداً عن الالمام بكينونة الأدب وطبيعته الفنية .

وليس ادل على ذلك من ان الناقد نفسه لا يعتمد في نقده حين ينقد على القواعد العامة فقط بل يستند بصورة خاصة الى ذوقه الفني ومزاجه اولاً وبالذات . ولو صح ان القواعد العامة جديرة وحدها بالكشف عن جمال الادب وروعته لكفتنا هذه القواعد مؤونة إعداد الناقد سنوات طويلة واعتبار ظهوره هبة من هبات التاريخ النقدي .

وعلى ذلك فالنقد في نظرنا ليس علماً كما يظن الناس وان كان يمت اليه بصلة بعيدة . بل هو فن قائم بذاته يعتمد على صحة الاحساس ورهافته ودقة النظر ومرانه الطويل . اما جانبه العلمي فهو مجموعة من تعميمات تتناول قواعد جامدة عامة هي احرى بطبيعتها ان تجمد الأدب وتعقده من ان ترسله على سجيته وتطلق له القيد فيتحرر من جبريتها الرتيبة . وغاية ما يهتم به الناقد في جانبه العلمي ان يدرس البيئة الاجتماعية والاحوال السياسية والمستوى العلمي ثم الاحداث التي تعاقبت على طفولة الأديب ومراهقته وشبابه . وقد يتجاوز ذلك الى آبائه واجداده او عنصريته وما الى هذه الابحاث العامة الغامضة . والناقد مع تعرفه الى هذا كله واطلاعه على ما دق من الحوادث وما عظم يحتاج قبل كل شيء الى عمود النقد الفني ، هذا العمود الذي تضؤل امامه العوامل السابقة جميعها فينجم من خلالها ركيزة اساسية للتمييز واعطاء الرأي الفاصل في جمال الادب وقبحه .

فالنقد الفني لا توفره معرفة الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لحياة الاديب كما لا تبينه دراسة مقومات العنصر والوراثة . ولكنه شيء ذاتي تفرضه هبة الطبيعة وقد تنميه العوامل الخارجية من الثقافة والتجربة .

واذا كان الادب هو فن التعبير عن الجمال ، فان النقد هو فن الكشف عن هذا الجمال وتذوقه . والفرق بين الاديب والناقد هو فرق في الدرجة لا في الطبيعة والجوهر . فالاديب اعمق توليداً واكثر ديناميكية من الناقد . وبذلك يصبح الناقد وسطاً بين الاديب والقارىء المتذوق الممتاز : الاول ينتج والثاني يوضح مواضع الجمال من انتاجه والثالث يتذوق هذا الجمال مستعيناً بتوضيح الناقد الموجه .

اثارت في نفسي هذا الرأي مقالة وقعت عليها في مجلة « الابحاث » التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت (السنة الخامسة ، الجزء الرابع) وقد قدمها صاحبها الاستاذ كمال يازجي بعنوان « الادب المحنط » .

لقد هاجم حضرة الكاتب الادب العربي القديم واعتبره ضحية للسياسة ، كما سماه ادباً منافقاً ، وحرمه من مقومات الادب الفنية التي تسمح له بالبقاء والخلود . ومعنى ذلك ان ادب اليقظة العربية ادب ساقط مرذول القيمة لا يمثل حلقة حية من سلسلة تاريخ الحضارة العربية .

وقد وجدت في رأي الاديب الكاتب ما يؤكد صحة ما ذهبت اليه في مقدمتي من ان النقد عمل فني ذاتي اكثر منه مجموعة قواعد عامة تخضع الادب لجبريتها الجامدة الصلبة . والواقع ان هذا الرأي ليس بدعاً من الآراء فقد سبقه الى اعلانه جماعة الشعراء المولدين أو جلهم على الاقل وعلى رأسهم ابو نواس وبشار وابن الرومي وابو تمام . وقد حاول هؤلاء تسفيه الاساليب الشعرية القديمة واهمال صور الصحراء واستعاراتها والفاظها بل

وموضوعيتها . وكان بين الفريقين صراع ادى الى انتهاء عهد وابتداء عهد جديد .

ولكن هل يظن الاستاذ ان بادرة ابي نواس ومشايعيه قد افقدت الشعر القديم قيمتهالفنية ؟ ان كان الامر كذلك فمعنى هذا ان كل مرحلة ادبية لاحقةهي وحدها الجديدة بالتقدير،واما ما سبقهامن المراحل فهي مراحل ميتة جامدة.ولا اظن الاستاذ يؤمن بذلك او يدعو اليه .

فالحكم الذي اصدره هو حكم نقدي خضع فيه لذوقه الفني وملابسات حياته الاجتماعية والثقافية والنفسية . فهو اذن حكم شخصي غير بريء .

اما رأينا نحن في هذا الادب فانه يتحدد بعد ان نعرض وجهة نظرنا في تاريخ الادب ومقدماته العامة . فظننا ان ادبنا هو كأدب كل امة اخرى ينقسم الى مرحلتين عامتين اساسيتين :

(١) ادب تقليدي اتباعي قومي

(٢) ادب رومانتيكي شخصي .

الادب الاول يمثل شعوراً قومياً عاماً وتوتراً جماعياً موجهاً الى مثل اعلى وعصبية تقليدية . إنه أدب اليقظة التي تجتمع بها قوى الأمة لتوكيد شخصيتها وفرض تراثها ، لا باعتبارها افراداً لكل فرد عالمه الخاص وملابساته الشخصية،بل باعتبارها حقيقة قومية عامة تجد نفسها في مرحلة صراع مع حقائق قومية اخرى ، كما تجد نفسها مرتبطة بمثل اعلى تستمده من التاريخ وتعتبره موضعاً لعصبيتها ومصدراً لامتيازها .

لقد وجد العرب انفسهم بعد استقرارهم في البلدان المفتوحة أمام خطرداهم هو خطر الذوبان في الشعوب المغلوبة على أمرها والتي تشكل اكثريةساحقة في امبراطوريتهم الواسعة الأرجاء. وقد احدث هذا الشعور عصبية عربيةشديدةوثقت الروابط بين الغزاةالقليلين في كل حقل من حقول السياسة والاجتماع والأدب.

فأما في السياسة فقد وجدنا الأمويين يحصرون مقاليد الحكم والقيادة في أيد عربية ، وأما في الاجتماع فقد ظهرت حركة إلغاء عنيفة لتقاليد الصحراء وميل شديد الى المحافظة في الحقل الديني وأما في الادب فقد ظهر تعصب شديد للغة الصحراء وموضوعيتها الفنية وأساليبها في التعبير . وهذه كلها مظهر لغريزة الدفاع عن البقاء والصراع القومي العام الذي يفقد فيه الفرد شخصيته ليصبح جزءاً متواضعاً من أجزاء الامة الكثيرة العدد .

هذه هي الملابسات الاجتماعية والنفسية والسياسية التي كوّنت هذا النوع من الأدب ودفعت اليه. أما استغلال الملوك والأمراء له فهو ظاهرة مشتركة نجدها في كل أمة . والأدب القومي العام أدب أرستقراطي لا يصور الناس العاديين ولا يحلل نفوسهم فيعرض ما حسن من خصائصها وما قبح . بل يكون مشدوداً إلى الماضي ، الماضي الحي العظيم الذي يتحول في نظر الأحفاد مصدراً لكل القيم وملجأ من خطر الانحلال وذوبان الشخصية .

وهل كان أدب النهضة الاتباعي في فرنسا أدباً شعبياً ؟ وهل يمكننا أن نجد صورة الشعب الفرنسي المقيد باغلال الرجعية والظلم والفقر فيما كتبه كورناي وراسين وبوالو ؟ الحقيقة ان هؤلاء الشعراء كانوا يكتبون وعيونهم مسمرة في الماضي وقلوبهم وعقولهم مشدودة الى التاريخ اليوناني واللاتيني . فمثلهم العليا وقيودهم الفنية وتعابيرهم الفخمة وعنايتهم الشديدة بالألفاظ والأخلاق التي يعرضونها والأبطال الذين يصفونهم ، هؤلاء جميعاً لم يقتبسوا من واقع فرنسا المؤلم.فالأبطال أبطال أرستقراطيون تستهدف تقليدهم طبقة الحكام ، واللغة لغة أرستقراطية ، أما المثل الأخلاقية فمثل يونانية لاتينية بحت وكذلك القيود الفنية . فأين إذن هذا الأدب الشخصي الحي ؟ هل نذكر موليير ؟ وهل كان موليير إلاعبقرية تستهلك إمكانياتها لتسلية الأقوياء والترفيه عنهم ؟ وإذا كان في أدب راسين شيء من الشخصية فهذا لا يفسد القاعدة العامة بل يقويها ويشد أزرها . لأننا نجد في تاريخنا الأدبي شاعراً كعمر بن أبي ربيعة يخرج على التقليد فيكرس على غير عادة العرب فنه كله لخدمة جمال المرأة وتصوير إحساسه نحوها ومغامراته معها . وكذلك كان شأن الغزلين العذريين . ولكن جهود هؤلاء الشعراء لم تستطع أن تحوّل التيار الأدبي العام وتفقده خصائصه القومية الشاملة .

وهكذا تمر السنون والصراع يشتد بين هذا الادب القومي التقليدي والأدب الشخصي الرومانتيكي حتى تغلب الثاني على الأول بفضل عاملين اثنين :

اولاً : صراع الشعوبيين الذين كانوا يمثلون أداة تهديم للشخصية القومية العربية .

ثانياً : استهلاك العرب لامكانياتهم النضالية وانتشار الانحلال الخلقي بينهم وانهيار عصبيتهم بمرور الزمن وابتعادهم عن مثلهم

التاريخي المحتذى .

وقد ساعد على احداث هذه الخال امثال ابي نواس في حقل الأدب والانتصار العباسي في حقل السياسة والاجتماع وتغلغل علوم الأولين في حقل الفكر . وهنا ظهر الأدب الشعبي الشخصي . فكانت الخمرة مرتكز ابي نواس والثقافة ، والفلسفة مرتكز ابي تمام ، والتجربة الانسانية الحية مرتكز ابن الرومي . حدث ذلك عندنا كما حدث مثلة عند الفرنسيين بعد قرنين ونيف من ابتداء النهضة الفرنسية فظهر الادب الرومانتيكي الشعبي متمثلاً في لامارتين وقدّم له امثال روسو وفولتير والادباء « الانسيكلوبيديون » في اواخر القرن الثامن عشر .

وبناء على ما سبق يمكننا ان نقرر الحقائق التالية :

١. اننا نخطىء خطأ جسيماً حين نتهم الادب العربي التقليدي بالجمود ونعتبره ادباً محنطاً وإنما ينبغي ان نعتبره ادب الشخصية القومية العامة وهو ضروري لنهضة كل أمة .

٢. ان هذه الظاهرة مشتركة بين كل الأمم عندما تمر في المراحل نفسها .

٣. ان حكمنا النقدي هو حكم شخصي فني يخضع لملابسات خاصة تحول دون تفهمنا لملابسات الآداب التي نشأت في غير عصرنا ودفعت اليها عوامل خاصة .

٤. ان ادبنا الرومانتيكي الحديث أدب لا يصلح لأحداث النهضة التي نرتقبها لأنه في حاجة الى عنصري التاريخ والروح الجماعية القومية الشاملة .

٥. ان رومانتيكيتنا الحاضرة تشبه الى حد بعيد رومانتيكية الادب الفرنسي قبل عصر النهضة او في اوائله كما هو الشأن في أدب « رونسار » .

٦. اننا ندعو الاستاذ كمال يازجي ومشايعيه ممن يقولون بوجود أدب محنط في عصر النهضة العربية الى ان يتعمقوا المقومات العامة التي تكوّن الأمم فينكشف لهم الغامض ويتضح المبهم ومن ثم يجدون الحياة فيما ظنوه موتاً والحركة فيما اعتبروه جموداً ، على ان يدركوا ان الحياة والحركة في مظهرهما الفني يتلوّنان بالوان كثيرة قد تختلف عما الفناه ونشأنا عليه .

رمضان لاوند

اقرأوا العدد الحادى عشر

من مجلة

العالم

التى صدر في اول نيسان ١٩٥٣

حوادث العالم في صور — منظمة الصحة الدولية تحارب الامراض — نصائح الطبيب — هل ذاكرتك قوية — للسيدات فقط : للامهات — الأفلام الجديدة : بعد فوات الاوان — السيد غلام محمد ، حاكم الباكستان العام — الاحصاء الزراعي في العراق — بين مخالب القطة وأشواك الزهور — قطعة من مصر في لندن — نادي الجيش العربي الاردني في لندن — قطار في طريقه الى الحرية — قيل وقال عن النجوم — الزاوية الزراعية — صور من القراء — حقائق ولكنها لا تصدق — قصة العدد : اخوان اجاكسيو — الطلاب في اوقات الفراغ — سر الهرم الاكبر في مصر — الالعاب الرياضية — خريطة لبنان — الفكاهه في انحاء العالم .

صفحة الغلاف الاولى : غادة شقراء لبّت نداء البحر قبل حلول فصل الصيف ولبست « مايوه » مبتكراً من لونين . وصفحة الغلاف الاخيرة : منظر ملون لشارع رئيسي في مدينة كراتشي عاصمة الباكستان .

الوكلاء العامون في البلاد العربية

شركة فرج الله للمطبوعات